

أثر الاستشراق في اللغة العربية
The impact of Orientalism on the Arabic language

أ.د. بوخاتم علي مولاي

جامعة بلحاج بوشعيب- عين تموشنت (الجزائر)

mboukhatem737@yahoo.com

وادرية زواوية*

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)

z.ouadria22@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/23

تاريخ الاستلام: 2025/02/25

ملخص:

الاستشراق بدراساته كاملة سطحية أم معمقة كانت، له تأثيرا ايجابية وسلبية على اللغة العربية خاصة والعالم العربي عامة، ويجب التعاطي مع هذه التأثيرات بكل موضوعية وفهم عميق للسياقات التاريخية والثقافية التي أدت إلى التغيير، ولم يكن ذلك إلا في الغور في كنوز اللغة العربية وفهم تراثها الغني والمتنوع والالمام بأساليب التعامل مع هذا التأثير والتأثر الذي يمثل نقطة مهمة لفهم العلاقة بين الثقافات والغوص أكثر في تراث الشرق بما في ذلك الأدب والدين والترجمة والنقل الثقافي، إضافة إلى إعادة قراءة النصوص بأساليب أدت إلى إعادة تقييم بعض النصوص من زوايا لم تكن مأخوذة بعين الاعتبار من قبل مما أثر على البحث اللغوي في العالم العربي، كما حظيت اسهامات الاستشراق رواجاً كبيراً سواء في العالم العربي أو خارجه.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الشرق، تراث، تأثير، اللغة العربية.

Abstract:

Orientalism, with all its studies, whether superficial or in-depth, has had both positive and negative effects on the Arabic language in particular and the Arab world in general. It is important to approach these effects with objectivity and a deep understanding of the historical and cultural contexts that led to the change. This can only be achieved by delving into the treasures of the Arabic language, understanding its rich and diverse heritage, and mastering the methods of dealing with this mutual influence, which is a key point in understanding the relationship between cultures. It also encourages further exploration of Eastern heritage, including literature, religion, translation, and cultural transfer. Additionally, it has led to a re-reading of texts in ways that resulted in re-evaluating certain works from perspectives that had not been previously considered, which in turn affected linguistic research in the Arab world. Orientalism's contributions have gained significant popularity both within the Arab world and beyond.

Keywords: Orientalism, the East, heritage, influence, Arabic language.

1. مقدمة:

الاستشراق هو مصطلح يستخدم لوصف دراسة الثقافات الشرقية وخاصة الثقافات العربية والإسلامية من منظور غربي، وكان له تأثيرات كثيرة ومتعددة على اللغة العربية وآدابها. كما أنّه نشاط يمارس من طرف الغربيين على العالم الإسلامي واستطاعوا بذلك الغوص في مجالات متعددة مثل الأدب والدين والتاريخ والفنون واللغات وغيرها.

ويمكن القول بأنّ الاهتمام المتزايد بالعالم الإسلامي بدأ منذ الأزل، مع ظهور الحملات الصليبية على المشرق العربي حيث جاؤوا بجيوش جراحة بحجة حماية بيت المقدس واستطاعوا اغتصاب جزء كبير من فلسطين، واستوطنوا. وعليه كان هناك تفاعل بين الثقافة العربية والغربية، وتمت كذلك ترجمة بعض النصوص الإسلامية إلى اللاتينية، قد قام بها العديد من المستشرقين الذين ترجموا القرآن الكريم، ومن أبرز هؤلاء المستشرقين "جورج سيل" George Sale كان أول من ترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية بشكل شامل في عام 1734، ترجمته تعتبر واحدة من الأكثر شهرة في تلك الفترة، ولهذا أتيح لبعض المفكرين الغربيين فهم بعض جوانب العلوم والفلسفة الإسلامية.

2. اهتمام المستشرقين بالترجمة والنقل:

ولهذا بدأت الترجمات والأبحاث بالتزايد خاصة مع اهتمام الأوروبي بالتجارة مع العالم العربي الإسلامي، وقام المستشرقون بدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية، كما شهد تطوراً في الدراسات الشرقية، حيث بدأ العلماء الغربيون يعيدون تقييم بعض الأفكار التقليدية عن الإسلام والثقافات الشرقية.

لا سيما وأنّ هذه اللغة هي المظهر الحسي للناحية الروحية للناس، وهي القوة التي تؤثر في أنماط تفكيرهم¹، وهذا يدل على الانتماء والهوية والتأثير يكون عبر هذه النقاط إضافة إلى ظهور انتقادات للممارسات الاستشراقية وارتباطها بمنهج استعمارية، وظهرت العديد من المؤلفات حول تاريخ الإسلام وعاداته، وأسس العديد من المستشرقين جمعيات وكراسي للغة العربية في جامعاتهم حتى يتمكنوا من فهم أفضل للتقاليد الإسلامية من منظور نقدي أكثر، ويتم التشكيك في بعض الممارسات القديمة من قبل علماء ومفكرين من العالم الإسلامي والغربي، وهذا أدّى إلى تطوير دراسات أكثر تنوعاً وشمولية.

وبهذا، الاستشراق هو مجال يعكس التعامل المستمر بين الثقافات الغربية والعربية الإسلامية، ومدى تأثير وتأثر الغرب والعرب بامتزاج الثقافات والاهتمامات المشتركة، وقد كان لهذا تأثيرات متعددة في اللغة العربية وآدابها وذا أهمية خاصة وأثر بالغ سواء في التعلم أو التأويل أو الترجمة ولذا فإنّ دراسة هذا الأثر تمثل نقطة مهمة لفهم العلاقة بين الثقافات وأول شيء حطّوا فيه الرّحال هو إحياء التراث العربي حيث ساهم المستشرقون في إعادة اكتشاف التراث العربي الأدبي، مما أدى إلى إحياء الاهتمام باللغة العربية والفلسفة العربية، وأصبحت المكتبات زاخرة بالعديد من النصوص والمخطوطات التي تم تحقيقها ودراستها.

3. تحقيق المستشرقين للمخطوطات:

وهنا نلتبس جهود المستشرقين الغربيين لدراسة وتوثيق التراث العربي والإسلامي، على الرغم من أنّ المستشرقين قد واجهوا أحيانا انتقادات بسبب نظرتهم الاستشراقية التي قد تكون محورة نحو فهم الثقافة العربية من منظور غربي، بيد أنّ التأثير كان كبيراً جداً، فقد اهتموا بجمع وتحليل الأدب العربي الكلاسيكي مثل الشعر والنثر وهذا ساعد في التعريف بالتراث العربي للعالم الغربيين فهم يرونه كما يرى عاصم حمدان: أن نقطة الضعف التي يجدها الغرب -اليوم- في أدبنا، هي ترديدنا لبعض نظريات في الأدب بعد لفظه لها بعشرات السنين، ثم هو ترديد لا استيعاب ولا تمثل فيه وعليه من أجل ترك بصمة والتقليل من أهمية تراثنا فلجئوا إلى التشكيك في التراث العربي. وكذلك الاستشراق زاد في اهتمامهم بالثقافة العربية ولغتها، حيث أقدم على ترجمة العديد من الأعمال وهذا قد يساهم في تعريف الغرب بالتراث العربي وترسيخه في أذهان المستشرقين كالتأثير الذي خلقتة حكايات ألف ليلة وليلة عند ترجمتها عام 1907م على الآداب الأوروبية بما فيها الأدب الألماني». ولهذا نلمس التأثير من خلال هذه الروايات وكشف الوجه الحقيقي للعرب عن طريق هذه الروايات، زد على ذلك اهتمامهم بتحقيق المخطوطات فقد عمل المستشرقون على تحقيق العديد من المخطوطات العربية، مما ساهم في الحفاظ على التراث العربي ونقله إلى لغات، وبهذا تمت ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية والعلمية العربية إلى اللغات الأوروبية وأصبحت المكتبة زاخرة بالكتب التي تعني بهذا، وفي هذا السياق نلمح التأثير والتأثر من خلال نقل الكثير من الأعمال إلى لغات مختلفة، إضافة إلى كتاب "كليلة ودمنة" ونقلت إلى لغات مختلفة مما أتاح للقراء الأوروبيين الاطلاع على الحكمة العربية، ومن بين أهم الترجمات الترجمة إلى اللاتينية كانت أو الترجمات من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، حيث كان يعرف الكتاب باسم Fables of Bidpai، ثم إلى الفرنسية والانجليزية وغيرها.

ونتيجة للزيادة الشديدة التي شهدتها المخطوطات العربية في المكتبات الأوروبية الكبيرة، وجدت أيضاً ممارسة نشيطة للطباعة سرعان ما أدت إلى تداول الأعمال العربية ذات المحتوى المختلف، ومن هؤلاء فريماند فوستفلد (1808-1899) وهو أحد تلامذة اللغوي الألماني إيفالد ممن اختار مكانة مشرفة، ومكتبة الاستشراق تدين بجهده في نشر عدد كبير من المطبوعات باللغة الأهمية لمؤرخين وجغرافيين عرب:

لابن خالكان 1835-1850، وابن هشام 1858-1860، تاريخ مدينة مكة 1857-1861، لابن قتيبة مرجع التاريخ 1850، والمرجع في الأنساب والأصول 1854، ومعجم السير للنووي 1843-1847، ومعجم البلدان لياقوت 1848-1873، والبكري 1876-1877، ووصف العالم القزويني 1848-1849.²

أما إذا عرجنا على المخطوطات العربية في مكتبة باريس سنة 1800 على بضع مئات فقط من موجودات مكتبات الأديرة المصادرة أثناء الثورة ومن سلاّيب الحملة الفرنسية على مصر ازداد رصيدها من المخطوطات ذات الغالبية العربية حتى سنة 1835 بحوالي 1500 خلفها وراءه القنصل الفرنسي في مصر أسيلين

دي شيرفيل وسجلت الفهرسة التي تعود إلى سلان حتى وصلت إلى 4665، وإذا انتقلنا إلى جملة الفهارس التي وصفت فيها مخطوطات فيينا العربية في ذات الوقت لم يستطع احد إضافة المزيد من الأعمال فلهم آهلفارت 1828-1909 واستثنى من ذلك المتحف الانجليزي الذي كان تحت مظلة شارل يو 1802-1902 سنة 1847 وهو العالم الذي تعد فهارسه للمخطوطات العربية والفارسية والتركية نموذجاً حقيقياً في الدقة.

وهذا ما زاد من التأثير حين قرر ألويس شبرنجر 1813-1893 منذ صباه دراسة المخطوطات العربية، كما اتيح له الاطلاع على طبيعة الثقافة الإسلامية وتخصصاتها وسرعان ما انكب على دراسة الوثائق الإسلامية التي وضعت تحت تصرفه في فن الطباعة الحجرية، وهذا ما مهّد الطريق أمامه ليكسب نفوذا حتى أنه شغل عدة مناصب، وبالتعاون مع عدد من العلماء المحليين استطاعت أعماله أن ترى النور أخيراً، وبطرق ملتوية إن صحّ التعبير، ونُقلت في عدة مناطق بالشرق وحين عودته سنة 1856 إلى أوروبا، كان بحوزته 2000 رزمة منها 1440 مخطوطاً عربياً عمل بها لفائدة مكتبة برلين في سنة 1858. وبالتالي كان لكل مستشرق بصفته الخاصة وميولاته التي تنفرد عن الآخر فانقسموا بين ما يريد الإعلال وبين من يريد الإسقاط. ومما لا يخفى مع "وليم رايت" 1830-1889 والذي عمل محافظاً مساعداً في قسم مخطوطات المتحف البريطاني، كما عمل في تنظيم المخطوطات الحبشية وغيرها التي أن انصرف إلى العناية بشعراء العصر الأموي الثلاثة الكبار: الأخطل، جرير والفرزدق وقام بنسخ المخطوطات.

وبالتالي الترجمة والنقل الثقافي الذي قام به المستشرقون إلى لغاتهم الأصلية، فتلك الترجمات لم تسهم فقط في تعريف غير الناطقين بالعربية على الأدب العربي بل أيضاً أدت إلى نقل مجموعة من المفاهيم والأفكار العربية إلى الثقافة الغربية، أو الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية. وفي هذا السياق يقول "صالح طعمة": «نلاحظ في السنوات الأخيرة إقبال متزايد على ترجمة أعمال أدونيس وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ومحمود درويش وصرح عبد الصبور»³، وهنا اهتمت المراكز الاستشرقية بمؤلاء الشعراء اهتماماً وأولتهم حظاً وفيراً في الكتابة كونهم يقحمون بعض الرموز الإيحائية التي تعود إليهم.

إضافة إلى ذلك فإن حركة الترجمة كان لها تأثير عظيم في تأسيس الحضارة الغربية على حساب العرب، كما يقول في هذا المضمار "جوستاف لوبون": «كان تأثير العرب على الغرب عظيماً وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوروبا»⁴. وبهذا لم يقتصر اهتمام الغربيين بالحضارة الشرقية من الجانب المعرفي فقط بل خرج إلى ميادين أخرى، ومُن برزوا أيضاً في هذا المجال كتب "إدوارد بدين" حول نشاط الترجمة إلى الألمانية من اللغة العربية في سويسرا ورأى بأنّه يعاني فتوراً ويرجع سببه إلى «قلة من يجيد في فهم الأدب العربي الحديث بعمقه اللغوي والاجتماعي والحضاري والسياسي وهل لدى المترجم المقدرة اللغوية والعمق الحضاري ولو جزئياً بالنسبة للألمانية بحيث يتمكن من إيصال إنتاج الأدب العربي المترجم إلى جمهور القراء الألمان بشكل سائق وجميل ومفهوم»⁵.

ولهذا لا يمكن التفاعل مع الثقافة العربية وإدراك معانيها إلا بالعيش في البلدان العربية والتفاعل مع ثقافتها المتنوعة ولغاتها المتعددة مما أدى إلى تقديم رؤى أكثر عمقاً وشمولية، فإحياء التراث العربي من طرف المستشرقين يعد

جهداً كبيراً حيث يجمع بين الفائدة والتحديات الثقافية. ومن المهم جداً أخذ ما قدمه المستشرقون بعين الاعتبار ومدى تأثيرهم وتأثيرهم في اللغة العربية بتعقيدها وغناها، كما تستمر في استقطاب الانتباه والدراسة، مما يظهر أهمية التواصل الثقافي في بناء الجسور بين الشعوب.

4. دعوة المستشرقين إلى العامية:

كما يظهر أثر الاستشراق في اللغة العربية من خلال الدعوة إلى العامية والتي اتخذها لغة للعلم والفن والأدب، زاعماً بأن الفصحى تهدم قوة العرب الاختراعية، مما يستلزم تحرّهم من سيطرتها وهذا ما دفع بهم إلى الرقي والازدهار وترجع بدايات الدعوة إلى اللغة العامية إلى أوائل القرن الثامن عشر عندما أخذت دول أوروبا تنشئ المعاهد الخاصة لتدريس اللهجات العربية العامية، والغرض من ذلك تخريج السفراء والقناصل والجواسيس الذين يوفدون إلى البلدان العربية، وكلّ هذا كان بعدما خرّت قواهم أمام قوة وعظمة اللغة العربية الفصحى ولم يعرفوا لها سبيلاً وكان وفق نظرة سلبية استطاعوا من خلالها الولوج إلى لبّ المجتمع العربي من أجل القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية محلّها.

وهكذا بدأت الهجمات على اللغة العربية وإهدار للثقافة بأكملها محاولين القضاء عليها إلا أنّها لا تزول ولن تزول لأنّ الله عزّ وجلّ حفظها فجاء في الذكر الحكيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر -09).

كما أنّ أوّل من أفلحوا في الدعوة إلى العامية المستشرق الألماني "وليم سيتا" الذي قام بتأليف "قواعد اللغة العربية العامية في مصر" عام 1880م: وأخيراً سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طول مدة جمع مادة هذا الكتاب، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها، وبمس شعبها ويكاد يكون مسألة موت أو حياة، فكل من عاش فترة طويلة في بلاد يتكلم العربية يرى إلى حد تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة، ففي مثل هذه الظروف لا يمكن مطلقاً في الثقافة الشعبية، وبهذا نقلت العامية من المستوى المنطوق إلى المستوى المكتوب، في مجالات البحث والعلم والتأليف والأدب والإدارة، وبالتالي إحلالها محلّ العربية الفصحى التي تمّ هجرها هجراً لئتمكّنوا من القضاء عليها وعلى وحدة الفكر العربي وبالتالي الحقد والكراهية كله موجه إلى الأمة العربية الإسلامية، وانتهجوا أجبن الطرق للفتك بالدين والمساس حتى بالشخصية والهوية العربية ومحاوله القضاء عليها على نحو ما فعلوه بهدف تشويه التاريخ الإسلامي وتحريفه وبالتالي أصبحت الحقيقة واضحة وضوح الشمس، والهدف من هذه المحاولات الوضيعة هو استئصال اللغة العربية من جذورها فبدلوا في سبيل تحقيق مبتغاهم النفس والنفيس.

وعليه فإنّ الاهتمام بلغة الأدب والاستمرار في الدعوة إلى العامية من طرف المستشرقين الذين خصصوا لها أقسام للدراسات العربية والإسلامية ومراكز البحوث في الغرب خصيصاً للأدب العربي وتركيزها على الأدب المتغرب والأدباء الذين لا يتصفون بالأصالة والمحافظة على قيم الأمة الإسلامية ومبادئها وتعاليمها السمحة.

وكذلك من بين الذين قدموا بحوثاً لغوية وأدبية تاريخية ثم تبعتها سلسلة من أعمال أخرى وطبعتان لمخطوطي حنين بن إسحاق، المستشرق جوتفيلف بيرجشترسر 1886-1933 بحيث الرحلة التي قام بها إلى الشرق في العام 1914 جعلته خبيراً باللهجات السورية وأدت لإصدار نصوص نثرية باللهجة الدمشقية 1924 وكذلك إلى أطلس سوريا اللغوي وفلسطين وهذه المحاولات لم تكن الأولى، والملاحظ أن من مكر هذا المستشرق أنه قبل إتقانه للهجة الدمشقية كانت له أعمال أحاطت بالقرآن وكانت أطروحته حول الإنكار في القرآن 1911، حيث اهتم المستشرقون بها كثيراً وأسفر هذا الاهتمام عن مجموعة من المؤلفات.

وعليه فالتأثير كان أكبر حين أسهم وليام "ماركيز" بعرضه الخاص باللهجة التلمسانية بشكل لم يسبق له نظير، وبنشر المصادر غير المعروفة حتى الآن حول شمال إفريقية. كما أنّ تأسيس كلية للغات في الجزائر في عام 1879، وتلقي في كل من قسنطينة ووهران كراسي للغة العربية ذات أهمية كبرى للدراسات العربية مما أثر بشكل مباشر وعميق على أعمال المستشرقين ومن هؤلاء "إدوارد هنري بالمر" 1840-1882 الذي تتلمذ في العامية على يد رزق الله حسون.

زد على ذلك من بين التأثير التي برز واشتعلت شمعتها في هذا السياق البحث اللغوي فقد أطلق المستشرقون العديد من الدراسات اللغوية المعمقة، حيث درسوا اللهجات العربية المختلفة وتاريخ اللغة وعلاقتها باللغات السامية الأخرى، مما أدى على إنشاء المعرفة باللغات وأصولها. ومن بين ما ردده المستشرقون وأعداء اللغة العربية هي دعوى صعوبة النحو وبالتالي أدرك الغرب خطورة اللغة العربية في توثيق روابط الوحدة الإسلامية، وتحسدت مجهودات المستشرقين في تبسيط اللغة وتطويرها في عدة أشكال من بينها إلغاء صورة الإعراب في الكلام العربي واللجوء إلى تسكين أواخر الكلمات.

أما الغرض الدقيق الأساسي أيضا من البحث في تغيير الحروف العربية أو إصلاحها ما هو إلا حجة للتفريق بين الشعوب العربية وقطع الصلة بين الأجيال القادمة وما يدعو إليه الإسلام والقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 46).

بيد أن هناك من دافع عن اصالة اللغة العربية وعمقها وشموليتها، وخير مثال عن ذلك المستشرق "يوهان فوك" الذي يقول: «واحتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية، وقد احتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابي في لغة التخاطب الحيّ أشاعر عرب البادية ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان، كما أنّ الحقيقة الثابتة، هي أنّ النحويين العرب كانوا في القرن الرابع الهجري يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم، المر الذي يدل على أنّ التصرف الإعرابي كان في أوج ازدهاره آنذاك بل لا نزال حتى اليوم نجد في بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب».

وهذا ما فعله الشاعر "المتنبي أبو الطيب" الذي قصد بادية لينتهل منها العلم والأدب، ويغترف من وعاء اللغة حتى أصبح فصيح اللسان بحيث يقول:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا
وَتَوَلَّوْا بِعُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْ
رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَأْلِيهِ
وَكَأَنَّا لَمْ نَرُضْ فِينَا بِرَيْبِ الدَّهْ
كُلَّمَا أَتَبْتَ الزَّمَانَ قَنَاءً
وَمُرَادُ النَّفْسِ أَصْعَرُ مِنْ أَنْ
وَعَنَاهُمْ مِنْ شَانِهِ مَا عَنَانَا
لَهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا
وَلَكِنْ تُكْدِرُ الْإِحْسَانَا
رَحَى أَعَانَهُ مِنْ أَعَانَا
رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا
نَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانَا

وهكذا فإن كانت اللغة العربية تشكو أو واقعة في مشكلة فإنها تشكو من لسان غير العرب الذي يجهل جمالها ودقة معانيها وألفاظها وتراكيبها الموحية وجودتها، مبتعدين بذلك عن تشوئها ونعتها بالركاكة، فهذا إجحاف في حقها، لأن لها فضل كبير فهي كانتشار النور في الظلام الدامس الذي يبدد السواد الحالك. غير أنّ لكل تأثر وتأثير سلبيات وإيجابيات، فمن بينها تأثر بعض الأدباء والشعراء العرب بالتوجهات الأدبية التي قدمها المستشرقون وأصبح بعضهم يستخدم أساليب جديدة في الكتابة مستلهمين ذلك من الدراسات الغربية لا سيما إذا كان حول الشعر العربي المعاصر، كاهتمامهم بالشاعر محمود درويش، فقد كان المستشرقون الذين درسوا في الجامعات المصرية وكذلك الطلاب الذين ابتعثوا إلى الغرب لدراسة الأدب العربي على أيدي المستشرقين دور في تأثر البعض في إفساد الذائقة الأدبية كما يقول الأستاذ محمود شاكر -رحمه الله- وهو ما عانى منه طيلة حياته وهر واضحا في معاركه الأدبية المتعددة ومنها على سبيل المثال مع لويس عوض الذي نجد تفاصيلها في كتابه أباطيل وأسمار، ومع الكاتب طه حسين في كتابه المتنبي ورد على طه حسين في قضية الشعر الجاهلي ونظرية الانتحال.

ولهذا فقد انجرفوا نحو أهوائهم وانبهروا بالغرب وكتبوا في بلادهم ما خالفوا عقيدتها وقيمها ومبادئها ومسلماها ما أن تأتيهم الدعوة من الغرب حتى يهرولوا في أحضانه ونسيان الماضي والحاضر، ومن هؤلاء الذين عرضت عليهم وظائف أستاذ زائر كل من كمال أبو ديب الذي أصبح يدرّس الأدب العربي والنقد في جامعة لندن منذ عدة سنوات وهو يقدم له التقرير السنوي لمركز دراسات الشرق الأدنى والأوسط بجامعة لندن بأنه: درس في عدة جامعات منها أكسفورد وجامعة بنسلفانيا، وجامعة بيركلي وصنعاء وكولومبيا بمدينة نيويورك⁶. وكذلك في بعض الأحيان العواطف والتصورات لدى المستشرقين تكون مشبعة بأحكام مسبقة وأفكار سلبية حيث قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (سورة المائدة، الآية 64).

فعلى سبيل المثال المستشرق زيغريد هونكه والمستشرق كارل بروكلمان وغيرهم كانوا من الذين لم يتسرعوا في الحكم على العرب أولا واللغة العربية ثانيا، وذلك من خلال كتابها المعروف "شمس العرب تسطع على الغرب" الذي أنصفت فيه الإسلام واللغة العربية وأقرت بحقيقة لطالما أراد المستشرقون إخفاءها فأبت إلا أن تكشفها وأرجعت لهم ولو الشيء القليل إلى فضلهم «وكانت ثمة عبقريتهم الفذة الخلاقة الاختراعية»⁷.

5. معجم مفردات اللغة العربية:

عمد الاستشراق من أجل غرس سمومه في كيان العالم الإسلامي وتضليل الحقيقة إلى الولوج في العالم الفكري والعلمي، حتى يلم بجلّ الجوانب وكانت الإرهاصات الأولى للاشتغال باللغة العربية كان من قبل البعثات التبشيرية للمسلمين في القرن 13.

فالدراسات تشير في البدء أنّ معجم المفردات العربية كان للمفردات العربية اللاتينية، والذي ينطلق فيه القسم العربي اللاتيني من اللاتيني العربي وفي الوقت الذي يضع فيه الجزء الأول الكلمة اللاتينية المناسبة لحف كل مفردة من المفردات العربية البالغ تعدادها 8000 كلمة، يحتوي الجزء الثاني هذا على أكثر من 4000 مقالة غزيرة البيانات فتحت كل كلمة منها يورد عدة مرادفات يتجاوز عددها 12 كلمة مرادفة، ويورد خلف الاسم جمعه، إضافة إلى اقتران الأفعال بعدة صيغ، المبني للمعلوم والمبني للمجهول، وعادة ما يذكر أصل الفعل (مجرداً)، وإن كان متعدياً أو لازماً أو مع حرف الجرّ، كما تلحق الأسماء أيضاً اشتقاقاتها، هذه جملة من الأمثلة تذكرها كالآتي: كأنواع الفاكهة - أسماء العنب، أجناس الكلاب، والثروة اللفظية للملبوسات والسجاد والأواني، كما ينعكس أيضاً على مستوى المعيشة، بيد أنّ هناك جانب قويّ من تجارة الحوض الشرقي المتوسط، دون أن ننسى الشطرنج ومصطلحاته، إضافة إلى أسماء الشخصيات، والمدن الإسبانية والأوروبية كلها بما فيها روما وذلك على العكس من المعجم اللاتيني العربية، بينما يؤخذ بعين الاعتبار أسماء الكواكب، ورسوم الحيوانات، والظواهر السماوية، ويعرجون أحياناً على القضايا الإسلامية بل تطرقوا أحياناً إلى الفروق بين الاستعمالات اللغوية الإسلامية والمسيحية وإن كانت كلمة غازي قد رمز إليها بكلمة واحدة فقط pirate وليس هذا فقط بل اهتموا بدراسة شتى الجوانب ورأوا بأنّ هناك حتمية لا يمكن العدول عنها وهي أن يتشعبوا في حياتنا اليومية ونشاطاتنا وفنوننا وهذا بالطبع راجع إلى عدة أسباب. والمستشرقون رغبوا في جمع ثورة لفظية للحياة اليومية، أما الارتباط بالنص الأدبي يفسّر كما رآه المستشرق يوهان فوك ولا يشاهد إلا في حالة مراعاة لغة القرآن. وفي الختام يمكن أن نقول أن المفردات العربية لم تعجم بحسب قواعد اللغة، وإنّ لهذه المعاجم قيمة كبيرة من أجل التعرف على العامية العربية التي كانت جارية على ألسن الفئة المثقفة لا سيما بإسبانيا وهنا يمكن أن نلتبس تأثير الشرق على فئة المستشرقين.

6. بداية حروف الطباعة العربية:

دأب المستشرقون بجهود متواصلة من أجل أن يحقق مبتغاه وبما أن الأدب العربي واللغة العربية ليست كغيرها لا سيما وأنّها لغة القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الآية 2 سورة يوسف)، فإنهم اهتموا بها اهتماماً كبيراً وعرقل سير هذا الاهتمام والتأثر عدم توفر حروف الطباعة، فقد تحتم عليهم اللجوء إلى قالب خشبي ورسمت الحروف بطريقة ركيكة.

وبهذا فصناعة الحروف من طرف أيدي غير خبيرة تنتج عن معنى غير متناسق، وأول مطبعة تم إنشاؤها لتغطية هذه الركافة كانت في ثمانينات القرن السادس في روما وبالتالي أصبحت تكتب بطريقة جيدة. وكذا ممن تأثروا بطباعة حروف العربية المستشرق الإيطالي جيوفاني باتيستا رايوندي الذي كان له مهارات في الخصوصيات الجوهرية للخط العربي وهذا مكنه من ابتكار أحرف عربية كالحروف المستقلة وفي سنة 1586 تمكن هذا الأخير من صناعة أحرف عربية أنيقة تم بواسطتها طباعة كتاب القانون لابن سينا الذي يعد بحق أبلغ شهادة لصالح تلك المطبعة، وهذا ينم على التوغل في دراسة اللغة العربية.

وقد توالى الطباعة وحققوا نصائح مبهرة بحيث تأسست مطبعة اللغات الشرقية حيث تم بنشر كتاب قواعد العربية المارونية ثم ترجمة "جغرافية النوبة" وسرعان ما استنهضت الهمم فقد صنع فرانسيسكو رافيلينجيوس 1539-1597 حروفا عربية تحتل مرتبة متأخرة بكثير بعد الرومانية بالطبع من حيث الجمال، لكنه طبع بهذه الحروف الأبجدية الهجائية فقط على غرار ذلك، فإن معجم عربية الأضخم لم ينشر إلا بعد انقضاء 16 سنة بعد موته من قبل ابنه، زد على ذلك فقد ظهر اثنان من مباحث القواعد المفصلة في الشرق: الكافية لابن حقيب والأجرومية لابن أجروم، كما ذاع صيت كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق من كتاب الإدريسي لروجر. كما ظهرت ترجمة عربية مستقلة أنجزها أحد الموالى التونسيين ويدعى "دومينكو سيرليو" التي مرت بفترة توقف كبيرة ونماذج هذا كثيرة ولا يمكن ذكر كل النماذج والكتب التي تم نسخها وطباعتها من أجل دراسة العربية وذلك بتسلح العلم وإلا وأد كل الآمال والترويج بالخيبة.

7. خاتمة:

وبهذا يظهر أثر الاستشراق في اللغة العربية أهمية التواصل المتبادل بين الغرب والشرق، ومن خلال الاهتمام بلغة العرب، بحيث تمكن المستشرقون من الإسهام في فهم أعمق للثقافة العربية محاولين إحياء تراثها القديم عن طريق تحقيق المخطوطات وترجمة ونقل الكتب من العربية إلى لغات مختلفة، ولا يمكن ذلك إلا بالولوج إلى فهم لهجاتها حتى يتمكنوا من سبك تلك المعاني والتراكيب بشكل جميل يتخلله الإبداع حتى لا تظلم اللغة العربية لأن بريقها ورونقها باقٍ لا محالة، رغم التشكيك في أصالتها ومحاولة تشويه صورتها بالدعوة إلى العامية وجعل منها اللغة الأصلية ومن أراد الغوص أكثر في فصاحتها يلجأ إلى باديتها التي لا تعرف المغالط ولا الوقوع في الزلل، كما هو حال ظهر من أيدي ومن عارض مرتكزين في ذلك على أهوائهم وعواطفهم وتصوراتهم، كما يظهر هذا الأثر أيضا من خلال فهم أعمق للثقافة العربية والإسلامية، رغم وجود التحديات فإن الاستشراق ساهم في تعزيز اللغة العربية في المحافل الدولية وجعلها دون أن يشعر جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من الحوار الثقافي العالمي، فاللغة العربية بتعقيداتها وتنوعها وغناها لا زالت جوهرة ثمينة تثير انتباه من يلمحها وتشدّ الحبال إليها لتكون جسراً تعبر فيه مختلف الشعوب.

8. الهوامش:

- ¹ - عمارة إسماعيل أحمد، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات العربية، ط2، دار حنين، عمان: 1982، ص 16.
- ² - يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا في القرن العشرين، ط2، تر: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان: 2001، ص 198.
- ³ - صلاح جواد طعمة، الشعر العربي الحديث مترجما، النادي الأدبي، الرياض: 1401هـ/1981م، ص 10.
- ⁴ - عبد الفتاح مصطفى غنيم، ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثرها على الفكر الأوروبي، دار الفنون العلمية، الإسكندرية: 1991، ص 11.
- ⁵ - إدوارد بدين، ترجمة الأدب العربي الحديث إلى الألمانية في سويسرا في الاستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع4، 1990، ص 219.
- ⁶ - مجلة الحياة، عدد 12379 - 09 رمضان 1417هـ / 18 يناير 1997م.
- ⁷ - زغيريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ط8، ترجمة: فاروق بيوض، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت: 1993، ص 126.

9. قائمة المراجع:

1. إدوارد بدين، ترجمة الأدب العربي الحديث إلى الألمانية في سويسرا في الاستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع4، 1990.
2. زغيريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ط8، ترجمة: فاروق بيوض، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، (بيروت: دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، 1993).
3. صلاح جواد طعمة، الشعر العربي الحديث مترجما، (الرياض: النادي الأدبي، 1401هـ/1981م).
4. عبد الفتاح مصطفى غنيم، ميادين الحضارة العربية الإسلامية وأثرها على الفكر الأوروبي، (الإسكندرية: دار الفنون العلمية، 1991).
5. عمارة إسماعيل أحمد، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات العربية، ط2، (عمان: دار حنين، 1982).
6. مجلة الحياة، عدد 12379 - 09 رمضان 1417هـ / 18 يناير 1997م.
7. يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا في القرن العشرين، ط2، تر: عمر لطفي العالم، (بيروت- لبنان: دار المدار الإسلامي، 2001).